صورة وصفية

عبد السميع

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كان كل امرئ يعرفه — أهل الحي، وزوّار الامام الشافعي، والأجانب السياح الذين يجيئون إلى هذه الناحية، ليروا مقابر الخلفاء والمماليك ومدافن « الباشوات » . وكان « عبد السميع » — كاسمه — سميعاً، ولكنه غير بصير؛ وكان له حجر عال عريض يعتمد عليه، ولا يريمه، في الشتاء والصيف؛ ولم يكن يبالي لا الشمس ولا الرياح، ولا المطر ولا التراب؛ وكان يظل نهاره على هذا الحجر، فاذا غابت الشمس ودخل الليل، اختفى، كأنما ابتلعته الأرض، أو انشق له الحجر فغاب فيه، فكل ما يعرفه الناس من أمره أن هذا مكانه قبالة المسجد، وأن كل راكب يميل اليه ويترجل عنده، ويضع بين أصابعه زمام دابته، حتى يفرغ من الصلاة في المسجد أو غيرها مما جاء له، فينقده القرش أو المليم ويتناول منه العنان ويحييه ويمضي. وكان « عبد السميع » يعرف كل رجل وامرأة وطفل في الحي، وكل غريب ألقى اليه زمام حماره أو بغلته أو فرسه أو مهره، من صوته؛ وكان من عجائبه أنه يعرف — وهو ممسك بالأعنة — حمار مَن الذي نهق، وأي هذه الدواب تعلك لجامها، وأي البغال مزنوقٌ فيرفه عنه ويرخي له الرباط الذي تحت حنكه، وأي حمار تفلتت الشكيمة من فمه، فينهض اليه ويردها إلى مكانها من فيه، وأي الأفراس انحل إبزيم منطقته فيعقده، أعني يدخل لسانه في طرفه الآخر. وكان كثيراً مايشير على أصحاب الدواب باتخاذ المراشح تحت لبد السروج لتنشيف العرق، أو بتضمير الفرس إذا وجدها سمينة، أو برفع الهماز إذا أحس بيده آثار وخزه في جلدها، أو بتغيير السرج إذا وجد له عقراً يظهرها، فقد كان رحيما رقيق القلب

وكان يأبى أن يتخذ عصاً يتوكأ عليها، ويجس بها الأرض ويقدر لرجله موضعها قبل الخطو، فكان يمشي مطمئناً واثقاً، كأنما يرى الطريق، ويلقى التحية إلى الناس بأسمائهم، في دكاكينهم حين يبلغها، بل كان يعرف المرء من دبة رجله على الأرض، فيقول له: « مالك مستعجلاً يافلان؟ خيرا، إن شاء الله! » وكان — ولا يزال — هناك طريق أعلى من الميدان الذي أمام المسجد يؤدي اليه سلم، درجاته متهدمة، فكان إذا بلغها يرقى فيها كأنه صبي في العاشرة من عمره؛ ولكن أعجب من هذا كله أنه كان يركب الخيل والحمير والبغال، ويركضها في الطرق والسكك التي ألفها، فاذا اعترضه زحام أو قطيع من الغنم، حبس الدابة، ثم أرخى لها اللجام، وتركها تتخلل الزحمة حتى إذا أحس خلو السكة نَقَرَ[1] بها، ليزعجها ويستحثها؛ فقد كان كما أسلفت شديد الرفق بالحيوان، لا تطاوعه نفسه حتى على نَكْزه بقدمه العارية

وكان دائم البشر، لا يتجهم ولا يكتئب، ولا يبدو للناس إلا طلق المحيا، ضحوكا، طيب النفس، حلو الدعابة؛ ولكن غزله كان فيه بعض العنف، فقد كان إذا داعب فتاة لا يحلو له إلا أن يقبض على شعرها ويجذبه اليه بقوة فينتتف بعضه؛ وكانت الفتيات يحذرن ذلك ويتقين أن يكن منه بحيث تنالهن يده

وجاء الشتاء، وجاء معه طبيب عيون ألماني، فأدار عينه في الصحراء فرأى على جبل المقطم شيئاً كالبناء فأشار اليه وسأل عنه فقالوا هذا قبر الجيوشي — أمير الجيوش — فرجا منهم أن يكون أحدهم دليله إليه، فقالوا: « بل يكون دليلك عبد السميع » وجاءوه به، فتعجب، ولو كان يعرف العربية معرفتها لتمثل بقول القائل:

أعمى يقود بصيراً، لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه

ولكن عبد السميع لم يضله، ولم يندم الطبيب على ثقته به واطمئنانه اليه، ووجد في صحبة هذا الدليل الغريب كل ما طالعه به وجهه الصبيح من الأنس، فنشأت بينهما بعد هذه الرحلة صداقة فريدة، فكان الطبيب يزوره كل بضعة أيام، ويجلس إلى جانبه على حجره العالي، ويراعيه وهو يحرس الخيل والحمير لأصحابها؛ ووقع من نفسه رقته بها وحسن تعهده لها، فقال له يوماً — بعربيته المحطمة — إنه يريد أن يعمل له في عينيه شيئاً،

(١) النقر أن تلوي لسانك إلى فوق وتلزقه بحنكك ثم تطلقه بقوة فيقرقع

وإنه يرجو أن يرد بذلك بصره عليه ، فضحك « عبد السميع » وقبل . وكان قد ألف أن ينظر الأطباء فى عينيه وأن يسمعهم يتلاغطون بما لا يفهم ، ثم يمضون عنه ويبقى هو على حجره

وجاء يوم نظر فيه الناس فإذا الحجر خال ، ولا « عبد السميع » هناك ، فصارت الأعنة تُلقى إلى صبيان يشدونها إلى مسامير فى الحائط ، وينامون ويتركون الحمير تتراقص

وكان « عبد السميع » راقداً على سرير نظيف فى مستشفى ، وعلى رأسه ووجهه — إلى أرنبة أنفه — الضمادات ، وهو ساكن لا يقول شيئاً ، ولا يبدى ألماً أو ضجراً ، ولا يدع شكه يغلب بشره أو شكره لصديقه ، وكان من العسير أن يعرف أحد فى أى شىء يفكر هذا الراقد المعصوب الرأس . ولعله — لطول صمته على خلاف عادته — كان يجاهد أن يتصور الدنيا الجديدة التى سيرثها حين يفتح عينيه عليها ويبصرها لأول مرة ؛ ولعله كان يستهول أن يبصر كل ما عرفه وألفه بحواسه الأخرى ، وكان كل ما يجيب به الطبيب حين يحدثه وهو يغير له الضمادات « إن شاء الله ! إن شاء الله ! » ثم يتحرك كالقلق المضطرب على هذا الفراش الناعم تحت اللاءة النظيفة

وكان الطبيب واثقاً من نجاحه ، فجمع إخوانه — زملاءه — فى صباح يوم ، وحل الأربطة بعناية وحذر ، ثم ترك ضوءاً خفيفاً يدخل فى الغرفة ، وتناول يد « عبد السميع » برفق ، وهو أشد ما يكون اضطراباً وسأله « أترى شيئاً ؟ » فقال عبد السميع — وعلى فمه ابتسامته التى لا تزايله — « صبراً ، صبراً » ، فصبر الطبيب لحظة ثم فتح النوافذ فغمر النور الحجرة وملأها الشمس ورقدت أشعتها على السرير والجالس عليه ، والأطباء حافون به ، منحنون اليه ، يحدقون فى وجهه وأنفاسهم مسرعة ، وقلوبهم فى حلوقهم ، و « عبد السميع » ساكن ، ووجهه الباهت من طول الرقاد ، إلى النافذة التى تطل على النيل ؛ ثم تحركت يداه ، وارتفعت كفه إلى عيناه ، وجعلت أصابعه المرتعشة تتحسس عينيه ، فأدرك القوم أن الطب أخفق ، وتوجع الطبيب الألمانى وأرفض دمعه ، فغطى وجهه بكفيه ليحبس عبراته أو يكتم نشيجه ، وسمع « عبد السميع » ما يتردد من البكاء المكتوم فنهض ، وعلى وجهه ابتسامة رزينة ، وتحسس طريقه إلى صديقه المحزون ، ومد يده الخشنة فلمست لحيته المبللة ، فنقلها إلى كتفه

وقال بصوت لا يشى بما عسى أن يكون مطوياً تحت ضلوعه

« لا تبك ياصاحبى ! ازجر عينك ، إنه قضاء الله ، ولاحيلة لنا فيه ، ومن نكون نحن حتى ندفعه أو نغيره ! » ثم تلفت ، فأقبلوا عليه يسألونه هل يريد شيئاً ؟ قال : « نعم — صبى يعود بى »

وعاد إلى حجره ، وخيله وحميره ، فلم يغب عنها بعد ذلك مرة أخرى ، ولم يقل لأحد أين كان

ابراهيم عبد القادر المازنى

من مشاهد الشرق

٤ — طائفة البهرا فى الهند

ملاحظات فى المجتمع البهرى

بقلم محمد نزيه

تتمـــــة

يقول الكهل الوقور محمد على بخش رئيس الوزارة البهرية فى وصف طائفته ، إنها (طائفة تجارية) لا يحيد عن سبيل التجارة واحد من أبنائها ، فإذا تنكب أحدهم هذه الطريق أو ضلها ، فلأذ بكرسى للحكومة ، أو زاول حرفة من الحرف لم تكن التجارة جل همه منها ، فقد انحرف عن تقاليد الطائفة ، وعق ديانتها ، ورماها فى أمنع حصونها ، فأصاب منها منازل القدسية والحرية والجاه

هى جماعة أقسمت منذ وضعت فى كف الحياة كفها ، ألا تعرف خفض العبودية ولا يعرفها رق هذا الزمان ، وإنهما ليقتحمان كل شىء إلا هذه الأمة التى أجمعت على ألا يكون الوطن المقدس رقعة من الأرض يهون امتلاكها ، ولا يعز اغتصاب ما فيها ومن فيها ، بل هم استفتوا عن الوطن المقدس بالعهد المقدس أن يكون صغيرهم ابن كبيرهم ، وكبيرهم أبا صغيرهم ، وكل كبارهم أشقاء وكل صغارهم أشقاء ، وأولئك وهؤلاء كأنما انتظم أرواحهم جميعاً سمط واحد من شعاع الشمس لا يقطع أبدا . وإذ كان لا بد لهذا الجوهر الأحد من معارف وبواطن تفرقُ بينه وبين سواه ، فإن أجلى معارف البهرى ابتعاده عن مخالطة أى امرئ